منهج الخطاب القرآني في عرض قضية الجزاء الإلهي، سورة الذاريات نموذجا

The Quranic approach to display ”God retribution”: Sûrat Adh-Dhāriyāt as a sample

د. محمد تمزغين*

جامعة الجزائر 1 بن يوسف بن خدة، كلية العلوم الإسلامية، الجزائر

m.timezghine@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/01 تاريخ القبول: 2022/05/31 تاريخ النشر: 2022/06/14

ملخص:

من أبرز مقاصد القرآن الكريم مقصد الجزاء الإلهي بما يعرف بالمعاد والوعد والوعيد، وقد نص على ذلك علماء مقاصد القرآن الكريم، ومن المهم جدا التعرف على طريقة القرآن الكريم في عرض هذا الموضوع وهذا المقصد، ومن تلك السور التي تناولت هذا الموضوع سورة الذاريات، فكيف عرضت سورة الذاريات موضوع الجزاء؟! إن الهدف من هذه الدراسة هو الوقوف على الوحدة الموضوعية للسورة ومنهج عرض موضوع الجزاء من خلالها. وللوصول إلى ذلك فقد استعملت الدراسة المنهج الوصفي والتحليل، وذلك في ثلاثة محاور؛ الأول عن الجزاء مقصدا للخطاب القرآني، والثاني عن الوحدة الموضوعية لسورة الذاريات، والثالث عن منهج السورة في عرض موضوع الجزاء. ومن أبرز نتائج هذه الدراسة: توازن الوعد والوعيد، وتكامل الجزاء الدنيوي والأخروي، وترابط الاستدلال الذي جمع بين آيات الآفاق وآيات الأنفس، وذلك باستعمال أسلوب الاستقراء للوصول إلى النتيجة والعلة المولدة لنفس الموقف في الأقوام من رسلهم، ثم تطبيق تلك النتيجة في توعد المشركين من العرب.

الكلمات المفتاحية: المنهج القرآني؛ سورة الذاريات؛ الجزاء الإلهي؛ الطغيان؛ آيات الآفاق والأنفس.

Abstract:

The god retribution is one of the great Quranic objectives, as famous scholars mention, and the statement of This article is: what is the Quranic approach to display this important objective? Through sûrat Adh-Dhāriyāt ? The study used the inductive and analytical methods to achieve the answer. The essential conclusion is that there are a balance of god promise and threat, the wordly and hereafter retribution in sûrat Adh-Dhāriyāt, and this surat used induction to reach the result and then apply it to the infidels.

Keywords: Quranic approach; Sûrat Adh-Dhāriyāt; God retribution; Transgressor; The universe and souls signs.

---

* المؤلف المرسل

مقدمة:

تميز الخطاب القرآني بالإحكام والدقة والقصد، لأنه خطاب الحكيم الخبير، يقول تعالى: "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" [هود:1]، وذلك من حيث انتقاء ألفاظه وتناسق عباراته ودقة نظمه، ومِن حيث جليل معانيه وحكيم مقاصده وبلاغة أسلوب خطابه في الإقناع العقلي والتأثير الوجداني والدافع العملي.

ومن أبرز القضايا التي تناولها الخطاب القرآني قضيةُ الجزاء الإلهي، فقد تنوعت أساليب القرآن وتعددت مداخله لموضوع الجزاء؛ وعدا بالأجر ووعيدا بالعقوبة، وتحقيقا للمعاد وتدليلا بإمكانية البعث وحالات وقوعه، ثم تصويرا لمشاهد الجنان وعذاب النيران. كيف لا وقضية الجزاء تعتبر أساسا من أسس العقيدة الإسلامية، وبتحققها يتمايز أهل التقى من أهل الفجور، وينال المسيئون وبال سوئهم ويوفى العاملون أجرهم بإحسان.

ويمكن الوقوف على ذلكم الأسلوب وتلك الطرق في الخطاب القرآني، من خلال تناول سور القرآن الكريم، خاصة ما كانت السورة تتمحور حول موضوع الجزاء الإلهي، كسورة الذاريات وسورة القيامة والزلزلة والنبأ...

إن الوقوف على أسلوب الخطاب القرآني له أهمية كبيرة من حيث الاستفادة من هذا المنهج في الدعوة والتربية، والحوار والجدال، كما أن الوقوف على تلك الأبعاد يزيد للإعجاز القرآني إظهارا مِن حيث كمال أساليبه إضافة إلى كمال معانيه.

ويمكن صياغة إشكالية البحث كالآتي: ما الذي ميّز الخطاب القرآني حول مقصد الجزاء في سورة الذاريات؟! وينتج عنه أسئلة كالآتي: هل الجزاء مقصد من مقاصد القرآن الكريم؟! وما هي أساليب الخطاب القرآني في عرض هذه القضية ؟! وكيف تناولت سورة الذاريات موضوع الجزاء ؟!

وقد سبقت دراسات علمية في الموضوع، أبرزها دراسة الدكتورة سعاد روابح حول "المنهج القرآني في بناء عقيدة البعث"[1]، قدمت فيها تصورات عامة حول هذا المنهج، ومع الاستفادة منها فقد ركز هذا المقال على سورة معينة جامعا بين دراسة المناسبة والوحدة الموضوعية وبين دراسة المنهج.

ومن تلك الجهود دراسة الدكتور عمر المحمود، "جماليات التناسب في جزء الذاريات، دراسة بلاغية تحليلية"[2]، وعلى الجهد الواضح فيها فقد غلبت عليها الجوانب الأدبية والأسلوبية، مع عدم حصر الدراسة في سورة الذاريات.

ويمكن اعتبار دراسة للمؤلف حول "منهج الخطاب القرآني في عرض قضية الجزاء، سورة القيامة نموذجا"[3]؛ أقرب الدراسات إلى هذا المقال، منهجا وطريقة تناول، مع اختلاف السورة، فلكل سورة منهجها وشخصيتها كما يقول سيد قطب.

وسيحاول هذا المقال تناول الموضوع مستعملا المنهج الوصفي والتحليلي، وذلك في ثلاثة محاور: الأول عن مقصد الجزاء وطرق عرض القرآن له، والثاني عن الوحدة الموضوعية لسورة الذاريات، والثالث عن أبرز جوانب موضوع الجزاء، وأساليب السورة في تناوله.

1. موقع قضية الجزاء من قضايا القرآن الكريم:

2.1 موضوع الجزاء من مقاصد القرآن الكبرى:

يُطلَق الجزاء في اللغة على المكافأة على الشيء، والمساواة والمقابلة عليه، ويكون بالإحسان وبالإساءة[4]، كما يطلق كذلك على الكفاية أي سدّ الخلة وبلوغ المراد في الأمر[5]، يقال أجزى الشيء عن الشيء أي قام مقامه[6]، ويطلق الجزاء على القضاء، فجزى عنك الشيء قضى، وجزيت فلانا قرضه أي قضيته[7]، إضافة إلى معنى رابع للجزاء وهو الغَناء، فلا يجزي عنك أي لا يُغني، ورجل ذو جزاء أي ذو غناء[8].

وخلاصة المعنى اللغوي للجزاء أنه: القضاء بمقابلة الشيء بما يساويه ويناسبه.

وقد جاء الجزاء في القرآن بمعنى الثواب، كما في قوله جل وعلا: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان:12]، وقوله سبحانه: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[الرحمن:60] [9]، كما أطلق الجزاء على العقاب، كما في قوله عز وجل: "وذلك جزاء الظالمين" [المائدة:29][10]، ويطلق الجزاء على الثواب والعقاب الدنيويين، كما في قول الله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[يوسف:22]، وفي قوله سبحانه: ﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [البقرة:191] [11].

ومن المفردات التي عبّرت عن الجزاء في القرآن مفردة "الدِّين"، كما في قوله سبحانه في سورة الفاتحة: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾[الفاتحة: 3]، وممن أشار إلى هذا المعنى الباقلاني إذ يقول: "معنى الدِّين يتَصَرَّف على وُجُوه، مِنْهَا الدّين بِمَعْنى الْجَزَاء، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾..."[12]، وهو مأخوذ من معنى: أدانه بمعنى حكم عليه. وهو المعنى المقصود لكلمة الدين في سورة الذاريات.

ومن تعريفات الجزاء ما عرّفه البقاعيُ بقوله: "الجزاء: مقابلة العمل بما يقتضيه من خير أو شر"[13].

ويعتبر الجزاء الإلهي مقصدا بارزا من مقاصد القرآن الكريم، وعلى هذا نص الكثير من أهل العلم[14]، يدل على ذلك آيات القرآن الصريحة، فقد قرن الله عز وجل بين الضلال واتباع الهوى وبين نسيان الجزاء والحساب، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص26].

كما بيّن أن اتباع الشيطان وتأثيره على الناس هو بسبب الشك في الجزاء واليوم الآخر، يقول عز من قائل: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ ﴾ [سبأ: 21].

ومما يدل على منزلة الجزاء الإلهي كثرة التركيز عليه في القرآن الكريم، فقد وردت مفردة الآخرة في ثلاثة عشر ومئة موضع في القرآن، والقيامة سبعون مرة، والساعة ثلاثة وأربعون مرة، والعذاب في ستة وثلاثمائة موضع، والجنات سبع وستون مرة، والجنة ست وسبعون مرة، والنار مئة وتسع وثلاثون مرة، والحساب سبع وثلاثون مرة، والحشر تسع وثلاثون مرة، والبعث ست وخمسون مرة، المصير ثمان وعشرون مرة، والمرجع ست عشرة مرة، والرجوع سبع وعشرون مرة[15]... وهو ما يظهر تمام الاهتمام بالجزاء وأحواله وأصنافه.

وقد أبرز العلماء ذلك الترابط بين جوانب الجزاء، وبينها وبين مقاصد القرآن الكبرى، فالجزاء هو غاية الإيمان وما ينتهي الأمر إليه من النعيم والعذاب، ومنه يندفع الإنسان لمعرفة طريق المقصود وسببه؛ وهي الأعمال، فيفعل الخير ويترك الشر، وبذلك تصلح الحياة[16]. فالجزاء هو لب المعاد وهو مفتاح الوعد والوعيد.

والجزاء من ناحية هو تلقي النتيجة من رب العزة، فالحياة كدح إلى ربك، وعند المنتهى يظهر الجزاء رضى ونعيما أو سخطا وجحيما، فيصبح الجزاء محورا للقاء الآخرة، وعنوانا للرضى والسخط[17].

والجزاء مقصد من مقاصد الخطاب القرآني باعتبارات كثيرة، فهو المحرِّك للإنسان ليعمل ويُقَدِّم لنفسه، كما أن الجزاء هو حفظ لجهد الإنسان أن يضيع، وهو صمام الأمان حين تظالم الخلق، فينتصف من الظالم للمظلوم.

إضافة إلى أن وجود الجزاء يظهر التمايز بين الناس محسنِهم ومسيئهم، يقول ابن عاشور في تفسيره لقوله سبحانه: ﴿ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [يونس:4].

يقول: "إبداء لحكمة البعث، وهي الجزاء على الأعمال المقترفة في الحياة الدنيا، إذ لو أُرسِل الناسُ على أعمالهم بغير جزاء على الحسن والقبيح؛ لاستوى المحسن والمسيء، وربما كان بعض المسيئين في هذه الدنيا أحسن فيها حالا"[18].

كذلك فإن الاعتقاد بالجزاء يجعل للحياة قيمة، ويثمر تحقيقا للدين وأداء لمهمة الخلافة في الأرض، والذي يؤدي إلى تحقق الحياة الطيبة في الدنيا، والنعيم الكبير في الآخرة[19]. يقول ابن عاشور: "لأن الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب لحفظ مصالح العالم، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة"[20].

وجماع القول في ذلك ما جاء على لسان رشيد رضا، إذ يقول عن الجزاء أنه "الذي بعث الله به الرسل عليهم السلام، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى، ويكون باعثا على العمل الصالح، وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان"[21].

2.2. تفنن القرآن في عرض موضوع الجزاء:

وإذا كان الجزاء مقصدا من مقاصد الخطاب القرآني، فإن مِن المفيد جدا الوقوف على طريقة عرض هذا الموضوع وبيانِ هذا المقصد، في الخطاب القرآني! والقارئ لكلام رب العالمين يجد الكثير من الأساليب المستعملة لأجل بيان هذا المقصد.

فمن ذلك التعليل، حيث عُلِّلت أحكام الجزاء والوعيد، فالله سبحانه يجازي العباد لأنه شهيد على أعمالهم، يقول تعالى: "يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد". [المجادلة:6] وهو يجازي العباد لينال كل عبد نتيجة عمله، يقول سبحانه: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١ ﴾ [إبراهيم51].

يقول البقاعي: "بيّن علة هذه الأفعال في ذلك اليوم، فقال معبراً بالجزاء والكسب الذي هو محط التكليف وظن النفع، لاقتضاء سياق القهر لهما: بـ {ليجزي الله} أي الذي له الكمال كله {كل نفس} طائعة أو عاصية. ولما عظّم الأمر بإسناد الجزاء إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع صفات الكمال، اقتضى ذلك أن يكون نفس الكسب هو الجزاء، لأن ذلك أبدع وأدق في الصنع وأبرع بأن يصور بما يحق من الصور المليحة عند إرادة الثواب، والقبيحة عند إرادة العقاب"[22].

كما أن الجزاء عنوان تمام ملك الله عز وجل، يقول سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ﴾[النجم: 31].

يقول البيضاوي: "(ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا) بعقاب ما عملوا من السوء، أو بمثله، أو بسبب ما عملوا من السوء، وهو علة لما دل عليه ما قبله؛ أي خلق العالم وسواه للجزاء، أو ميّز الضال عن المهتدي وحفظ أحوالهم لذلك، (ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى"[23]. وبه يظهر ويتمايز المحسن عن المسيء، والبر عن الفاجر، والجد من الكسلان.

ومن ذلك القصص، حيث تنوعت قصص القرآن، مع تركيز كبير على أن الله ناصرٌ عباده، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣ ﴾ [الصافات: 171–173]. وهو ما سبق ذكره في آيات سورة الصافات، من نصرة نوح وإنجائه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ٨٢ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ٨٣ ﴾ [الصافات: 79–83]، ومن نصرة موسى وهارون: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ١١٦ ﴾ [الصافات: 114–116]، وغيرهم من الأنبياء[24].

وأنه سبحانه غالب لعدوه، ومجاز للمستكبرين بالهلاك والعذاب، وموف لأوليائه بالنجاة من الهلاك وبالعزة، كما نجد في القصص القرآني سردا لقصص المرسلين وكيف جازى الله عز وجل كل قوم بما يناسبهم جزاء وفاقا.

ومن ذلك أيضا التصوير الفني لمشاهد القيامة والآخرة، فصورت سور القرآن لوحات تنطق بتمايز المتقين عن الفجار، والجزاء الأوفى للمحسنين، والجزاء الوفاق للطاغين، بما يجعل تالي القرآن يشاهد تلك المشاهد من التنعم والاطمئنان والنعيم الكبير للمتقين فيشتاق لمثل ذلكم الجزاء فيعمل له.

مثاله قول الحق جل وعلا: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦ ﴾ [الغاشية: 8–16]، فالرضى بالسعي والبشر فلا تنغيص، وتناول ما لذ وطاب، جزاءُ سعي طيب. يقول الطبري: "قوله: (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) يقول: لعملها الذي عملت في الدنيا من طاعة ربها راضية، وقيل: (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) والمعنى: لثواب سعيها في الآخرة راضية"[25].

وفي المقابل يرى الإنسان مشاهد الحسرة والألم والخشوع والخوف، وأنواع العذاب الدائم المتكرر، فيضيق صدرا ويتألم قبل أن يتألم حقيقة، ما يدعوه إلى النفور من هؤلاء وعملهم، مثاله قوله سبحانه: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ١٧ ﴾ [إبراهيم: 16–17].

يقول سيد قطب: "والمشهد هنا عجيب. إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد. مشهد الخيبة في هذه الأرض. ولكنه يقف هذا الموقف، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها، وهو يُسقى من الصديد السائل من الجسوم. يُسقاه بعنف فيتجرعه غصباً وكرهاً، ولا يكاد يسيغه، لقذارته ومرارته، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات! ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنه لا يموت، ليستكمل عذابه. ومن ورائه عذاب غليظ.. إنه مشهد عجيب، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروّع الفظيع"[26]

كما نجد في الخطاب القرآني الربط بين العمل وجزائه، فيعدَّد لمن يعمل الصالحات النعيم والخيرات، فيقبلون على طاعة ربهم بإخبات ورجاء، كما يعدّد لمن يعمل السيئات الجحيم والآلام، فينفرون مِن تلك الأعمال السيئة والفحشاء والمنكر والظلم والإجرام والإسراف.

ومثال ذلك بيان وخيم عاقبة أكل مال اليتيم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠ ﴾[النساء: 10]، والالتزام بحدود الميراث والحذر من انتهاكها: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤ ﴾ [النساء:13-14]. يقول الرازي: "أنه تعالى بعد بيان سهام المواريث ذكر الوعد والوعيد ترغيبا في الطاعة وترهيبا عن المعصية"[27].

فالمتأمل لأساليب القرآن في الحديث عن الجزاء الإلهي يظهر له: "كيف تنتقل آيات البعث من دليل عقلي إلى دليل كوني إلى تاريخي، فيظهر ذاك الرباط الخفي بين هذه الأدلة التي تأتي متراصفة يكمل بعضها مع بعض، وتبلغ الغاية من التأثير دونما شطط، ومن غير فصام بينها"[28].

فأساليب عرض موضوع الجزاء في القرآن متعددة متنوعة، وكلها يؤدي إلى غاية واحدة هي تركيز الجزاء مقصدا بارزا في قلب المسلم، وتحريكه إلى العمل الصالح تقديما ليوم يَجِدُ جزاءه.

ومن بين الأساليب التي استعملها الخطاب القرآني أيضا أن كان الجزاء موضوعا من موضوعات سور القرآن الكريم، تدور في فلكه آيات تلك السور، ولكل سورة شخصيتها كما يقول سيد قطب[29]، وخصوصيتها في تناول موضوع الجزاء.

إن الوقوف على تلك الوحدة الموضوعية للسور مما يتعلق بموضوع الجزاء لمفيد جدا، من حيث إنه مزيد ترسيخ لهذا المقصد، ومحاولة لتكشيف الموضوع وتجميع طرق تناوله في القرآن الكريم، ليستفيد الإنسان من ذلك فكرا ودعوة.

فماذا عن سورة الذاريات وكيف يمكن أن نكتشف الوحدة الموضوعية لها، وما علاقتها بالجزاء ؟

2. الوحدة الموضوعية لسورة الذاريات:

1.2 السياق العام للسورة:

سورة الذاريات هي السورة السادسة والستون (66) نزولا[30]، وهي سورة مكية باتفاق أهل الفن[31]، تعالج موضوعات العهد المكي، وأبرز تلك الموضوعات هي قضايا العقيدة والغيب، كاليوم الآخر والجزاء.

وقد أقسم الله تعالى بالريح التي تذرو الأبخرة وتسيِّر السحاب، وما ينتج عن تلك السحب مِن قسمة[32]. كان القسم بذلك لبيان أن الموعود صادق وأن الدين واقع. والموعود قد يكون خيرا فيكون وعدا؛ أو سوءا فيكون وعيدا[33]، وأن ذلك الموعود جزاء ودِين[34]، وأنه حاصل لا محالة، لأنه موعود.

وفي التعامل مع هذا الموعود موقفان: موقفٌ مكذِّب ناقم على الرسول المخبِر[35]، فيصفه بالسحر والجنون تخريصًا[36]، ويستعجل هذا الوعد استهزاء[37]، بل يفتن الناس عن اتباع الحق والاستعداد لهذا الموعود، فيكون جواب موقفهم بذكر مشهد من العذاب وفتنة النار مقابل فتنتهم للناس في دينهم[38].

وموقفٌ مصدقٌ بالرسولﷺ، مستعد للجزاء فيتقي ربه، ويستغفر لذنبه ويستعد للقاء مولاه، ويحسن إلى الخلق[39].

ثم يذكر الله تعالى أن في الأنفس[40] والآفاق[41] آيات على صدق الموعود ووقوع الجزاء[42]، فمن آيات الأنفس يبتدئ بذكر بشارة إبراهيم بولده العليم، عباد مكرمون، وسيد كريم وفيّ لهم[43]. وبذكر العذاب لمجرمي قوم لوط والنجاة للمؤمنين، وهذا هو الدين والجزاء الذي وقع، وتركها الله آية على الجزاء[44].

وجعل الله في موسى آية[45]، وما كان من جزاء لفرعون وقومه. وفي عاد آية[46]، وكيف عاقبهم ربهم بالريح التي لا تبشر بالرحمة والغيثِ بل ريح عقيم، وفي ثمود آية، جزاء عتوهم وغفلتهم أخذتهم الصاعقة، كما أهلك قوم نوح من قبل ففيهم آية[47]، أهلكهم لأنهم كانوا قوما فاسقين.

كما يأتي بآيات في الآفاق[48] الدالة على صدق الموعود، فالسماء آية[49]– في حبكها وطرائقها وانسجامها على اختلافها واتساعها–، والأرض آية– في تمهيدها، وتشكل مع السماء سكن الإنسان[50]، ثم الزوجية آية على التكامل في الخلق لتستمر حياة الإنسان، فدلت تلك الآيات على العناية والرعاية والحكمة، لقوم يذكرون العناية والحكمة، ويتنبهون لإمكان الجزاء مع القدرة، ولزومها مع الحكمة[51].

تلك آيات لمن يتقي قوة الجبار، ويوقن بلزوم الدين ويعتبر بسنن السابقين. لذلك ففروا إلى الديّان[52]، تعبدونه وترجون لقاءه وتخشون عذابه وتستعدون لجزائه، إني لكم منه نذير مبين، ولا تشركوا معه إلها آخر، إنه الحقيق بالخشية لقدرته ووعيده.

ثم يعود السياق إلى موقف الأقوام، فما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا قولا واحدا: ساحر أو مجنون ؟ هل أوصى بعضهم بعضا بهذا الموقف ؟! كلا، لأن كل قوم قد أُهلِكوا فزالوا تماما فلا تلاقي بينهم[53]! إن اتفاق جوابهم دليل أن العلة واحدة[54]: إنه الطغيان[55]، سنة ماضية.

فتول عن الطاغين[56] فما أنت بملوم بموقفهم، وواصل التذكير فإن الذكرى تنفع المؤمنين. وأعظم ما تُذَكِّر به[57] هو منهج العبادة والاستسلام لله بدل الطغيان، فما خلق الجن والإنس إلا لعبادة ربهم، محتاجين إليه ولا حاجة له لرزقهم وإطعامهم، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين[58].

وإذ قد كذب قومك يا محمد ﷺ وظلموا وطغوا، فسيصيبهم ما أصاب من قبلهم، وينالون نوبتهم[59] من الجزاء كما نال من سبقهم، فلا يستعجلون! لأنه إذا حلّ الجزاء فالويل للكافر يومها.

2.2 استكشاف الموضوع العام للسورة وهيكلها:

من خلال ما سبق من سياق سورة الذاريات يتضح أن موضوعها الأساس هو الجزاء الموعود[60]، وأن السورة قسم وجوابه بثبوت هذا الجزاء، وبيان لمواقف الناس منه، ثم تعداد لدلائل وقوعه في الأنفس والآفاق، ثم إثبات لما يفسر به الموقف الواحد للأقوام رغم اختلافهم، ثم بيان ما ينتظر مَن حصلت فيه علة الجزاء مِن ثبوته وأنه سيقع لا محالة.

وهذا على خلاف من اختار أن يكون موضوعها هو: الفرار إلى الله وعبادته[61]، وكذلك من قال بأن موضوعها: الرزق[62]، لأن ذلك جاء استطرادا في النسق العام للسورة، فالفرار نتيجة للإيمان والتأثر بالوعد والوعيد، والعبادة أهم ما يذكر به، كما أن الرزق قد ذكر تباعا عند استغناء الله عن الرزق وحاجة الخلق إليه.

ولعل مما يثبت أن موضوع الجزاء الواقع والوعد الصادق هو موضوع السورة الاستهلالُ به جوابا للقسم في أول السورة ثم تسلسل الاستدلال عليه، إلى ختم السورة به ردا للعجز على الصدر، ثم كونه الموضوع الأكثر ذكرا في السورة بأشكال وصور عديدة، وليس استطرادا أو لماما.

ويمكن رصد خطوات عرض موضوع الجزاء في سورة الذاريات كالآتي:

1. القَسَم بالريح وما تُقَسِّمه، بأن الموعود صادق وأن الجزاء واقع.
2. موقف الناس مِن الخبر الموعود بالجزاء:
   - موقف المكذبين به وجزاؤهم في الآخرة.
   - أحوال المتقين وجزاؤهم في الآخرة.
3. توجيه النظر إلى آيات الآفاق والأنفس.

أ. آيات الأنفس في الأقوام السابقين دالة على وقوع الدين.

- جزاءُ خيرٍ: بالنجاة والبشرى للمسلمين [إبراهيم، لوط].

- جزاءُ سوءٍ: قوم لوط، فرعون، عاد، ثمود، قوم نوح

أ. آيات الآفاق دالة على صدق الموعود

- إعداد أسباب استقرار الحياة: بناء السماء وتوسيعها، وفرش الأرض وتمهيدها
- إعداد أسباب استمرار الحياة: الزوجية في الخلق

○ [استطراد] الموقف الأنسب: النفير إلى الله، وإنذار المكذبين.

4. اتفاق موقف الأقوام من المنذرين بسبب طغيانهم:

○ [استطراد] وظيفة الرسولﷺ هي التذكرة، وتبشيره بالاستجابة

○ [استطراد] أهم تذكرة: مقصد خلق الإنس والجن.

5. لمن ظلم نفس جزاء السابقين.

فكان الموضوع العام للسورة هو الجزاء الموعود؛ قَسَما وآثارا واستدلالا وتطبيقا.

3. منهج سورة الذاريات في عرض موضوع الجزاء:

يمكن الوقوف على منهج السورة في عرض موضوع الجزاء من خلال جوانب عديدة أبرزها ما يأتي:

1.3 تركيز السورة على إثبات الجزاء:

ركزت السورة بشكل أساس على الجزاء، وهذا ما يجعله الموضوع الأساس لوحدتها الموضوعية[63]، وقد تم ذلك من خلال مداخل متعددة؛ كالقسم في أول السورة بالرياح وما تذرو وما تحمل وما تجري وما تقسم، ليكون الجواب بأن الموعود صادق والجزاء واقع[64]، وللقسم أهمية كبيرة في الاهتمام بالمقسم به وبجواب القسم؛ فالتحكم في الرياح وجلبها للرحمة وقصد أرضٍ دون أخرى، وقومٍ دون غيرهم، ثم ما تقسمه تلك الرياح والسحب يشعر بالتراتب والسببية، وبالعلم والحكمة، وبالقدرة والتدبير والتحكم[65]، ثم إبهام ما تقسمه الرياح والسحب زاد للقسم تأثيرا، فلا ندري أتقسم رحمة أم عذابا![66]

كما جاء الجزاء في الوعد بالجنان والعيون، والوعيد بالفتنة في النار، وللوعد والوعيد علاقة مباشرة بالجزاء، مِن حيث إنه تحذير من خطر فيُعرِض ويصد الصادون، وتبشير برحمات وجنان وعيون فيُقبِل ويعمل المحسنون، خاصة حين يُنظر إلى استعجال الكفار تعجيزا واستهزاء، فتجيبهم السورة بأن نصيبهم سينالونه جزاء موقفهم، فويل لهم حين يحل بهم ما يستعجلون، فالأحسن ألا يستعجلوا! وبالمقابل يكون جزاء المتقين أخْذًا لما آتاهم ربهم جزاء وأجرا لما قدموه من تمام إقبال وإخبات واستغفار وإحسان.

ثم بتعداد آيات الأنفس مما حصل من الأقوام السابقين مع رسلهم، والتركيز على موقفهم الدال على الطغيان: "مجرمين... مسرفين... تولى بركنه... عتوا عن أمر ربهم... ما كانوا منتصرين... فاسقين... بل هم قوم طاغون... يستعجلون" العذاب. فملاحظة كل ذلك يظهر ذلك الترابط بين الفعل المشين والجزاء العادل.

2.3 استعمال الاستقراء للوصول إلى النتيجة ثم تطبيقها:

ومما تتميز به السورة -بشكل ملفت للنظر- ذلك الاستقراءُ لأحوال من سبق، فثمة تقسيم لحالات التفاعل مع الوعد بالجزاء؛ بين منكر ومؤمن، ثم سَبْرٌ لحالات الإنكار حالة حالة:

1) قوم لوط: مجرمون، مسرفون، كفار غير مسلمين = جاءهم العذاب حجارة من طين مسومة.
2) فرعون وقومه: تولى بركنه، أفحش في الكلام وصد تمام الصد عن موسى بوصفه أنه: ساحر أو مجنون = أخذناه وجنوده فنبذناهم باليم
3) عاد: = ريح عقيم تذر ما تأتي عليه كالرميم
4) ثمود: تمتعوا، عتوا عن أمر بهم = أخذتهم الصاعقة
5) قوم نوح: قوما فاسقين = أهلكناهم من قبل.

تلك خمس حالات، استعمل معهم الخطاب القرآني أسلوب الاحتباك الذي يطوي بعض ما هو معروف لدى المخاطب اكتفاء بنباهة القارئ في ملء الفراغات[67]. فلم يذكر موقف قوم هود، لظهور ذلك في محطات أخرى في القصص القرآني. كما ذكر في ثمود محطةَ ما قبل الإهلاك مِن التمتع والانتظار.

ثم يستنتج قاعدة:

- كلما جاء أحدَ هؤلاء الأقوام نبي قالوا فيه: ساحر أو مجنون. موقف مشترك.
- علة ذلك:
  - أأوصى بعضهم بعضا بنفس الموقف؟ لا يمكن ذلك، لأنهم لم يتلاقوا لهلاك كل قوم على حده وهلاكا تاما إلا المتقي.
  - علة مؤثرة نفسية: إنه الطغيان، يؤدي إلى نفس الموقف. سنة وقانون[68].
- ذلكم الموقف تتولد عنه نفس النتيجة وهي الإهلاك.

فالقانون: جاء الرسل + طغى الأقوام + كذبوهم = جاءهم الهلاك.

ثم إن الروعة في السورة أنها -بعد هذا الاستقراء والاستنتاج- تقوم بتطبيق القانون:

- كفار العرب: جاءهم المصطفى ﷺ + طغوا + كذبوه= إذاً سيهلكون. "للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم" [الذاريات:59].

ثم يستطرد السياق في السورة فيقول: لا معنى لاستعجالهم، لأن الموعود صادق والجزاء قد وقع فعلا، وقد تمت أسبابه وعوامله، فسيحل الجزاء إذا. ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الذاريات:60].

إن استعمال الاستقراء في السورة لينبئ بالكثير من الأمور المهمة، فهو يشعر بمنطقية الخطاب القرآني، الذي يؤسس لمنطق تفكير قبل أن يطالب العباد بالإيمان المطلق، ثم إنه أسلوب استدلالي مهم جدا في الدعوة والتربية والجدال.

3.3 تحليل موضوع الجزاء أسبابا وآثارا ولوازم:

ومن الجوانب المهمة في سورة الذاريات تتبعها لموضوع الجزاء مِن حيث بيان أسبابه وآثاره ولوازمه، ويمكن عرض ذلك في الطرفين[69] كالآتي:

1) الطاغون:

- السبب: الطغيان بدل الخضوع والعبادة
- الآثار: الإجرام والإسراف في قوم لوط، الصد عن سبيل الله في فرعون وملئه، التكبر في عاد، العتو في ثمود، الفسق في قوم نوح، الفتنة في مشركي قريش.
- اللوازم:
  - العقاب في الدنيا: بالحجارة، باليم، بالريح العقيم، بالصاعقة.
  - العقاب في الآخرة: الفتنة في النار.

2) المتقون:

- السبب: العبادة بدل الطغيان
- الآثار: الدعوة والتذكير، الإيمان، الإحسان (استغفارا وعونا)
- اللوازم:
  - الجزاء في الدنيا: البشرى، النجاة، العذر على عدم الاستجابة للرسل
  - الجزاء في الآخرة: جنات وعيون

والتعامل مع موضوع الجزاء بمنطق الأسباب والآثار واللوازم يوسّع الموضوع من طابع هدائي تربوي دعوي فقط إلى طابع علمي سنني، وهو ما دأب عليه القرآن في محطات كثيرة من آياته وسوره.

4.3 تداخل الاستدلال بين آيات الآفاق وآيات الأنفس:

كذلك فإن مِن أبرز الجوانب المهمة لتناول الجزاء في سورة الذاريات، أنها جمعت بين الاستدلال بآيات الآفاق وآيات الأنفس، فمن ذلك الرياح وهي من آيات الأفاق، جمعت بين النفع والضر، نفع بالغيث وضر بالصرصر التي تدمر كل شيء، بإذن مدبر واحد، فتصبح الرياح نافعة لقوم لحالهم التي تناسبها الرحمة، وضارة لقوم آخرين لحالهم التي يناسبها العذاب، فالرياح قد قرنت بين آيات الآفاق وبين حال الأنفس.

كذلك أنواع العذاب الواردة في السورة، وهي الريح واليم والصيحة والحجارة والطين، ثم النار، وكلها من آيات الآفاق، وفيها ما فيها من تكامل الحياة وخدمة الإنسان واستمرار الحياة، لكنها تأخذ صورة العذاب والعقوبة لمن طغى وظلم.

ومما يظهر ذلك التداخلَ بين آيات الآفاق والأنفس ما كان من إصلاح زوج إبراهيم﵇، وهو أمر من عالم الخلق، وكيف كان لتقوى إبراهيم وإبلائه البلاء الحسن أثر في إصلاح زوجه، وهو اقتران آخر بين السنن والجزاء.

ولعل أبرز جانب في منهج الخطاب القرآني في سورة الذاريات هو توظيف آيات الآفاق في الاستدلال على إمكانية البعث بدلالة الحكمة والملك والقدرة، وبدلالة العناية التي ينتج عنها المنة فالمساءلة، فكل ذلك دليل على إمكانية البعث في الجزاء، ثم تأتي دلالة آيات الأنفس على وقوع الجزاء فعلا مِن خلال نماذج مَن عوقب لطغيانه سابقا، فيجتمع الاستدلال بين الإمكانية والوقوع، وهو استدلال محكم متكامل.

5.3 الجزاء الدنيوي مكمل للجزاء الأخروي:

المتدبر لسورة الذاريات يلحظ النصيب الصغير جدا لذكر الجزاء الأخروي؛ بالفتنة في النار، وبالجنات والعيون، في مقابلة الجزاء الدنيوي الذي يأخذ مساحة واسعة جدا في السورة تتجاوز نصف السورة، فهل الجزاء الوارد ذكره في أول السورة "الدين"، هو الجزاء الدنيوي أو الجزاء الأخروي ؟

الحقيقة أن الجزاء تمامَ الجزاء هو الجزاء الأخروي، كما هو الوارد في معظم السور القرآنية، والذي تم التركيز عليه في مواضع وبأساليب في القرآن عديدة. بينما الجزاء الدنيوي قد يصادف أقواما كما هم المذكورون في السورة، ويتجاوز آخرين كما تجاوز بني إسرائيل مثلا، بمعنى أنه غير مطرد، وأن القول بأن بعض ما يقع من وقائع هو جزاء دنيوي قطعا؛ قول لا يمكن لأحد النطق به!

لكنّ تتبع السورة يُوقِف على الترابط التام بين الجزاءين الأخروي والدنيوي، فالذين حقّ عليهم العذاب الدنيوي سيحِقّ عليهم العذاب الأخروي، فيصبح عذاب الأخرة أشق، وقد سبق إليهم عذاب الدنيا، جزاءَ طغيانهم وكفرهم وصدهم عن السبيل؛ كما أن جزاء المتقين كان بالنجاة والبشارة بالخير، وهو دليل صدقهم وتحققهم بالعبودية لله عز وجل، يسبق الجزاء الأخروي من النعيم ورضوان من الله أكبر.

إن ما ذكر من الجزاء الدنيوي لهو المصداق على أن جزاء الآخرة حق، وأن النار بِهَوْلِها وصنوف عذابها حق، وأن الجنة بِكَمال نعيمها حق أيضا، وما الدليل على ذلك ؟! ما حدث لمن كذّب بالوعد الصادق، ومن صدّق.

وخلاصة ما في هذا العنصر أن لله في الحياة الدنيا أنواعا من الجزاء ينبغي أن يقيس عليها الإنسان فردا ومجتمعات، فيلاحظون الأسباب ويتأملون المواقف، ويحذرون رأس الأسباب وهو الطغيان، لئلا يسبقهم الجزاء في الدنيا قبل الآخرة.

6.3 توازن الخطاب بين الترغيب والترهيب:

مما يلاحظ في السورة كذلك ذلكُم التوازن الرائع بين الترغيب والترهيب، فالترهيب كان في عذاب الآخرة بالفتنة في النار، وفي الدنيا بصنوف العذاب والهلاك: حجارة من طين، وإغراق في اليم، والريح العقيم، والصيحة، والإغراق؛ وبالمقابل كان الترغيب بالجنات والعيون في الآخرة، وبالبشارة بالغلام العليم، وبالنجاة للمسلمين المؤمنين.

وأَكْرِم بالنجاة من العذاب فهو مِن أعظم الجزاء، وأنْعِم بإصلاح الزوج والرزق بالذرية خرقا للأسباب، وأقرب مِن هذا وذاك: التبشير بإقامة الحجة ورفع الملامة عن دعوة الطاغين المعتدين.

ولئن كان الجزاء الدنيوي في سياق السورة قد جاء في شكل استطراد، فإن إدخال الوعد ضمن الوعيد مما تميز به الخطاب القرآني، وهو ما يعطي أملا في ظل الخوف، ورجاء في ظل الحزن.

7.3 ما يستفاد من هذا المنهج:

يمكن الاستفادة من منهج الخطاب القرآني في سورة الذاريات لعرض الجزاء الإلهي أمورا عدة أهمها:

- الجمع في الخطاب التربوي والدعوي بين جوانب التأثير الوجداني في الوعد والوعيد وبين جوانب الإقناع، باستعمال الاستقراء وذلك الأسباب واللوازم.

- التوازن في الخطاب عن الجزاء بين الترغيب والترهيب، وذلك النماذج المتقابلة تحفيزا للاقتداء بالنماذج الحسنة وتحذيرا من نماذج الاقتداء السيئة.

- استحضار الجزاء الدنيوي في الحديث عن الجزاء الأخروي تقدمة واستدلالا، ثم جعل الجزاء فاعلا في حياة الإنسان فمن يعمل سوءا يجز به.

- الجمع بين آيات الآفاق وآيات الأنفس في الخطاب والاستدلال وتوجيه النظر والتفكر، ففي ذلك تكوين لملكة التفكير والمقارنة والتعامل مع الحياة تعاملا مع الآيات والدلائل والنعم والمنن.

خاتمة:

لقد كان لنهج الخطاب القرآني في عرض قضية الجزاء خصائص عديدة، حاول المقال تتبعها من خلال الوحدة الموضوعية لسورة الذاريات نموذجا لسور القرآن الكريم التي كان موضوعها الجزاء.

ولعل أبرز نتائج هذه الدراسة هو ما يأتي:

1) يعتبر الجزاء مقصدا بارزا من مقاصد القرآن الكريم، تفنن القرآن في عرضه في سور كثيرة وبطرق مختلفة.

2) كان الموضوع العام لسورة الذاريات هو: الجزاء الموعود، تشهد لذلك وحدة السورة الموضوعية تناسبا وتسلسلا.

3) تنوعت جوانب الخطاب القرآني حول قضية الجزاء، بيانا واستدلالا وترغيبا وترهيبا وجدالا وتصويرا.

4) ركزت السورة على إثبات الجزاء قَسَما وبيان مواقف، واستدلالا بالآيات، وتوعدا ووعدا.

5) استعملت السورة في تناول موضوع الجزاء منهج الاستقراء سبرا وتقسيما للوصول إلى النتيجة ثم طبقت النتيجة على مثال واقعي زمن نزول الوحي.

6) أبانت السورة موضوع الجزاء من حيث أسبابه وآثاره ولوازمه.

7) ظهر في الاستدلال على الجزاء من خلال سورة الذاريات ذلكم التداخل بين آيات الآفاق وآيات الأنفس.

8) كما ظهر في الاستدلال التكاملُ بين الجزاء الدنيوي والجزاء الأخروي.

9) جاء الخطاب القرآني في سورة الذاريات عن الجزاء متوازنا بين الترغيب والترهيب.

ومن أبرز توصيات هذه الدراسة:

- مواصلة التكشيف عن منهج الخطاب القرآني حول الجزاء في السور القرآنية الأخرى، خاصة ما جان موضوعها الجزاء، كسورة النبأ والمرسلات، وغيرها.

- إبراز أهمية الكشف عن منهج الخطاب القرآني في عرض قضايا القرآن ومقاصده لما في ذلك من الربط بين الكليات وهي المقاصد والمعاني الكبرى، وبين الجزئيات وهي تفاصيل المعاني وآيات القرآن الكريم.

.

الهوامش:

[1] مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، مج1، ع3، 2016م.

[2] مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام، ع47، 1439هـ.

[3] مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر1، مج14، ع4، 2021م.

[4] ينظر: الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005م، 1270/1، مادة جزا.

[5] ينظر: الراغب، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط1، 1412هـ، ص 195. مادة جزا.

[6] ينظر: ابن سيده، علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م، 499/7، مادة الجيم والزاي والياء.

[7] ينظر: ابن منظور، محمد، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، دط، دت، 612/1، مادة جزأ.

[8] ينظر: المصدر ن.

[9] ينظر: الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، 453/4.

[10] ينظر: الآلوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ، 285/3.

[11] ينظر: السمرقندي، نصر بن محمد، بحر العلوم، تحقيق: د.محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، دط، دت، 154/1.

[12] محمد بن الطيب، تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1987، ص387

[13] البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دط، دت، 441/10.

[14] ينظر: كشنيط، عز الدين، أمهات مقاصد القرآن، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 2012م، ص340 وما بعدها.

[15] ينظر: عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط1، بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1999م.

[16] ينظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، رئاسة شؤون الحرمين الشريفين، السعودية، ط1، 1404هـ، 418/14

[17] ينظر: الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد، جواهر القرآن، تحقيق محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط3، 1990م، ص47-48.

[18] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984م، 91/11.

[19] لمزيد التأصيل والتفصيل في الجزاء مقصدا من مقاصد القرآن ينظر: محمد تمزغين، التعليل بالأسماء الحسنى في القرآن الكريم وأثره في المقاصد القرآنية، رسالة دكتوراه، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، 2013م، ص226-247.

[20] ابن عاشور، التحرير والتنوير، 174/1.

[21] الوحي المحمدي، دار الكتب، الجزائر، 1990م، 175.

[22] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 440/10.

[23] البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.، 160/5.

[24] يقول الغرناطي:"كرر قوله (كذلك) لبناء علة الجزاء وموجبه عليه". فجمعت الآيات بين القصص والتعليل. أبو جعفر، أحمد بن إبراهيم بن الزبير، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، دط، بيروت: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 411/2.

[25] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2000م، 385/24.

[26] قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط17، 1412هـ.، 2093/4.

[27] الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ، 525/9

[28] روابح، سعاد، المنهج القرآني في بناء عقيدة البعث، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، ع3، س2016م، ص58.

[29] ينظر مثلا: في ظلال القرآن ص3، ص1746

[30] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 335/26.

[31] ينظر: الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، ط1، دمشق: دار ابن كثير، 1414هـ، 98/5.

[32] يذكر الرازي أن للآية وجهين: 1. الذاريات تنشئ السحاب، وتحملها، وتجري بها، وتفرق الأمطار على الأقطار. 2. الذاريات تذرو التراب على وجه الأرض، وتجمع الأجزاء من الجو وتحمله حملا، وتجمع الأمواج وتجري السفن في البحر، وتقسم الأمطار وأرزاق الأفلاك. مفاتيح الغيب، 161/28.

[33] يبين الرازي أن الفعل "توعد" يمكن رده إلى وعد، كما يمكن رده إلى أوعد. وإن كان الثاني هو المقصود مع المنكر. مفاتيح الغيب، 28/ص162.

[34] بدلالة الآية التي بعدها وهي قول الحق: "أيان يوم الدين"، أي يوم الحساب والجزاء. ينظر: أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق فؤاد سزكين، دط، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1381هـ، 225/2.

[35] البقاعي عن أبي جعفر بن الزبير في برهانه: "لما أقسم بصدق الوعد والجزاء أعقبه بتكذيبهم للجزاء وازدرائهم". نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 449/18.

[36] ينظر: الزمخشري، الكشاف، 396/4.

[37] ينظر: أبو السعود، محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دت، 8/ص137

[38] فالجواب ليس جواب تعليم لمستفهم بل جواب وعيد لمستهزئ. ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 164/28

[39] ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج4، ص398.

[40] يقول الرازي: "و(وفي أنفسكم) إشارة إلى دليل الأنفس". مفاتيح الغيب، 172/28.

[41] ينظر: المصدر ن.

[42] يقول البقاعي: "فإن كل هذه آيات دالة على قدرة الصانع على كل ما يريد واختياره، وأنه ما خلق هذا الخلق سدى، فلا بد أن يجمعهم إليه للعرض عليه". نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 458/18.

[43] ينظر: ابن عطية، ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دط، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ، 177/5 وما بعدها.

[44] يقول ابن كثير: "جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين". ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط3، السعودية: دار طيبة، 1999م، 422/7.

[45] ينظر: الزمخشري، الكشاف، 403/4.

[46] ينظر: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1964م، 50/17.

[47] ينظر: القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ، 44/9.

[48] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 186/28.

[49] يقول القرطبي: "السماء معطوفة على قوم نوح، وهما آيتان". الجامع لأحكام القرآن، 52/17.

[50] ينظر: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تحقيق: أحمد شمس الدين، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995م، 358/1.

[51] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 18/27

[52] يقول أبو السعود: "والفاء إما لترتيب الأمر على ما حكي من آثار غضبه الموجبة للفرار منها ومن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها كأنه قيل قل لهم إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذى هذه شؤنه بالإيمان والطاعة كي تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه". إرشاد العقل السليم، 143/8.

[53] ينظر: الزمخشري، اكشاف، 405/4.

[54] يقول ابن عطية: "العلة في ذلك أن جميعهم طاغ، والطاغي: المستعلي في الأرض المفسد العاتي على الله ". المحرر الوجيز، 5/ 182.

[55] الرازي، "إنما كان لمعنى جامع هو أن الكل أترفوا فاستغنوا فنسوا الله وطغوا فكذبوا رسله". مفاتيح الغيب، 191/28.

[56] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 23/27.

[57] يقول الرازي: "أقصى غاية التذكير وهو أن الخلق ليس إلا للعبادة، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة فذكرهم به وأعلمهم أن كل ما عداه تضييع للزمان". مفاتيح الغيب، 192/28.

[58] فالآية تعليل للتي سبقتها. ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 29/27.

[59] الذنوب بالفتح مفرد وهو دلو عظيم يحتسب به للسقي، ولكل واحد عدد ذَنوب أو أكثر، فهو النوبة وهو النصيب. ينظر: الطبري، جامع البيان، 446/22

[60] وهو اختيار البقاعي في نظم الدرر، 445/18.

[61] ينظر: مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ط1، الشارقة: جامعة الشارقة، 2010م، 439/7.

[62] ينظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، 3373/6.

[63] يقول محمد حسن فضل الله: "ويتصل ذلك كله بالمعاد، باعتبار أنه المضمون الروحي للمسؤولية، والغاية التي تخرج الحياة من العبثية، ليكون الإيمان بالتوحيد في خط الرسالة حركةً إيمانيةً عملية تتعلق بالمعاد كنتيجة نهائيةٍ لوعي المسؤولية في حركة الحياة والإنسان". http://arabic.bayynat.org/HtmlSecondary.aspx?id=4827. تاريخ الزيارة 12 /2021/08م.

[64] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 414/7.

[65] يقول أبو السعود: "في تخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق مضمون الجملة المقسم عليها من حيث إنها أمور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود". إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 136/8.

[66] ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 447/18.

[67] لتعريف الاحتباك ينظر: الشريف، علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م، ص12. الكفوي، أيوب بن موسى أبو البقاء، الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، دط، بيروت: مؤسسة الرسالة، دت، ص57

[68] ينظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1422هـ، 173/4

[69] أشار عمر المحمود إلى استعمال السورة لأسلوب التقابل والتضاد في السورة، وهو من منهج خطاب السورة. ينظر: جماليات التناسب في جزء الذاريات، ص353.

قائمة المراجع:

1) الآلوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. تحقيق: علي عبد الباري عطية، (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ).

2) ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. تحقيق: أحمد شمس الدين، (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995م)

3) الباقلاني، محمد بن الطيب، تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل. تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، (ط1، لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية، 1987م)

4) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. (دط، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، دت)

5) البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، (ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418هـ).

6) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى. (ط1، السعودية: رئاسة شؤون الحرمين الشريفين، 1404هـ)

7) أبو جعفر، أحمد بن إبراهيم بن الزبير، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل. تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، (دط، بيروت: دار الكتب العلمية، دت.)

8) ينظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير. تحقيق عبد الرزاق المهدي، (ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1422هـ.)

9) الرازي، محمد بن عمر الفخر، مفاتيح الغيب. (ط3، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ)

10) الراغب، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن. تحقيق: صفوان عدنان الداودي، (ط1، بيروت: دار القلم، 1412هـ.)

11) رشيد رضا: الوحي المحمدي. (دط، الجزائر: دار الكتب، 1990م.)

12) الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. (ط3، بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ)

13) أبو السعود، محمد بن محمد. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. (دط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دت)

14) السمرقندي، نصر بن محمد، بحر العلوم. تحقيق د.محمود مطرجي، (دط، بيروت: دار الفكر، دت)

15) ابن سيده، علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم. تحقيق عبد الحميد هنداوي، (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م.)

16) الشريف، علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات. (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م.)

17) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير. (ط1، دمشق: دار ابن كثير، 1414هـ)

18) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق أحمد محمد شاكر، (ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2000م)

19) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير. (دط، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م)

20) عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. (ط1، بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1999م.)

21) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن. تحقيق فؤاد سزكين، (دط، القاهرة: مكتبة الخانجى، 1381هـ)

22) ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، (دط، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ)

23) الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد، جواهر القرآن، تحقيق محمد رشيد رضا القباني. (ط3، بيروت: دار إحياء العلوم، 1990م.)

24) الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط. تحقيق محمد نعيم العرقسُوسي، (ط8، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2005م.)

25) القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد، محاسن التأويل. تحقيق محمد باسل عيون السود، (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ)

26) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن. تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (ط2، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1964م)

27) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط17، بيوت: دار الشروق، 1412هـ.

28) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم. تحقيق سامي بن محمد سلامة، (ط3، السعودية: دار طيبة، 1999م

29) كشنيط، عز الدين، أمهات مقاصد القرآن، ط1، عمان: دار مجدلاوي، 2012م

30) الكفوي، أيوب بن موسى أبو البقاء، الكليات. تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، (دط، بيروت: مؤسسة الرسالة، دت)

31) مسلم، مصطفى وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم. (ط1، الشارقة: جامعة الشارقة، 2010م)

32) ابن منظور، محمد، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، (دط، القاهرة: دار المعارف، دت)

33) المحمود، عمر بن عبد العزيز، جماليات التناسب في جزء الذاريات: دراسة بلاغية تحليلية. مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام، ع47، 1439هـ.

34) تمزغين، محمد، منهج الخطاب القرآني في عرض قضية الجزاء، سورة القيامة نموذجا". مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر1، مج14، ع4، 2021م.

35) روابح، سعاد، المنهج القرآني في بناء عقيدة البعث. مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، مج1، ع3، 2016م.

36) فضل الله، محمد حسن، موقع بينات، تاريخ الزيارة 12 /2021/08م. http://arabic.bayynat.org/HtmlSecondary.aspx?id=4827.